العرب
السبت 2020/09/26
السنة 43 العدد 11832

الصحف تضحّي بالرسوم الكاريكاتيرية في أزماتها الاقتصادية والسياسية

المعرض العالمي للكاريكاتير صرخة رفض في زمن كورونا

كاريكاتير يغني عن الكتابة والتقارير الصحافية

تواجه رسوم الكاريكاتير تضييقا في الصحف والمجلات مع تراجع حجم المساحات المخصصة لها. فهي أول ما يتم حذفه أو تقليص مساحته إذا ما اقتضت الحاجة. إضافة إلى القيود على محتواها ومحاولة الضغط على الرسامين لتخفيف حدة النقد وترميز رسوماتهم بطريقة لا تزعج الحكومات والأنظمة.

لشبونة – تشهد رسوم الكاريكاتير تراجعا مستمرا في الصحافة العالمية والعربية، فمع اختفاء الكثير من الصحف والمجلات، تقوم مطبوعات أخرى بخفض المساحة المخصصة للكاريكاتير التحريري، لهذا صمّم القائمون على المعرض العالمي لرسوم الصحافة الكاريكاتيرية على إقامته رغم الظروف الصحية المرتبطة بأزمة كورونا.

ويقام المعرض في نسخته الـ15 في كالداس دا راينها في البرتغال، بهدف رئيسي ألا وهو الدفاع عن حرية الصحافة والتعبير عبر رسوم الكاريكاتير، حيث يعتبر رسامو الكاريكاتير أن هذه المهنة تعاني أزمة كبيرة ولا تقتصر على مشكلة الرقابة فقط بل تتخطاها إلى مشكلة ثقافية أكبر، تضع مستقبل رسوم الكاريكاتير على طريق الزوال. صحيح أنه يمكن مشاركة الفنانين رسومهم على الإنترنت مع العالم كله، إلا أن نشر الرسومات على الإنترنت لا يكون بمقابل دائما.

وارتبط فن الكاريكاتير منذ نشأته في أوروبا في القرن السادس عشر بفكرة التمرد والنقد. فكلمة كاريكاتير مأخوذة أصلا من كلمة كاريكير "Caricare" الإيطالية التي تعني المبالغة أو تحميل الشيء ما لا يحتمل.

واستخدم الفنانون الرسوم لانتقاد الكنيسة الكاثوليكية، وهو ما سارت عليه هذه الرسوم في معاصرتها لمختلف الأنظمة والسلطات منذ ذلك الوقت، الأمر الذي يفسر موقف الحكومات المستبدة المعادية لرسوم الكاريكاتير في العالم أجمع.

ويرى بعض المراقبين أن فن الكاريكاتير في العالم العربي يتعرض حاليا لهجمة قوية من جانب بعض الأنظمة التي ترى فيه مُحرضا على الثورة والانتقاد، وأداة من أدوات الحشد السياسي للمعارضة. إذ أن فن الكاريكاتير له قدرة على إيصال فكرة تفوق الكتابة والتقارير الصحافية.

ويواجه فن الكاريكاتير العربي تضييقا داخل الصحف الحكومية والخاصة، مع تراجع حجم المساحات المخصصة له في هذه المطبوعات بشكل عام، حيث أصبحت رسوم الكاريكاتير في مقدمة المواد التي يتم حذفها أو تقليص مساحتها إذا ما اقتضت الضرورة التحريرية، أو في حالة زيادة مساحة الإعلانات.

ومع الضغوط المتزايدة على هذا الفن من قبل السلطات السياسية، وجدت الكثير من الصحف لاسيما العربية أن الاستغناء عنه أسلم، أو على أقل تقدير توجيه الرسامين إلى التخفيف من حدة الانتقاد.

ويفيد أنطونيو أنطونس، مدير المعرض العالمي ورسام الكاريكاتير البرتغالي، بأن "الضغوط الممارسة على حرية الصحافة تخلق مناخا، بالواقع سيء بالنسبة للرسوم المتحركة. هناك العديد من رسامي الكاريكاتير الذين طُردوا من عملهم، وآخرين خضعوا للرقابة، وهناك من تم اعتقاله أو نفيه. أعتقد أن محبي الحرية لا يمكنهم إلا أن يحبوا الرسوم الكاريكاتيرية، وبالتالي علينا خوض هذه المعركة، وكسب الجمهور خلال هذا التحدي".

> المؤسسات الصحافية لا توظف رسامي كاريكاتير إنما تتعامل معهم بالقطعة، وهو أمر ينعكس على مصدر دخلهم

كما ألقت الأزمة الاقتصادية التي تمر بها غالبية الصحف العربية، بظلالها على رسوم الكاريكاتير بسبب انخفاض أسعار الصحف والمجلات، وتدهور الإعلانات والإيرادات، حيث لا تقوم المؤسسات الصحافية بتوظيف رسامي كاريكاتير وإنما تتعامل معهم بالقطعة، وهو أمر ينعكس على مصدر دخل هذه الفئة التي تعاني من قلة الموارد المادية.

وتمكنت بعض الأنظمة العربية من استغلال الأزمة الاقتصادية لإسكات رسامي الكاريكاتير في بعض الصحف من خلال التضييق عليهم في مسألة التوظيف بالصحف والمجلات أو تقليل رواتبهم ومخصصاتهم المالية. فكان الخيار أمامهم إما بالجلوس في منازلهم وإما الابتعاد عن الرسومات التي تعبر عن مشكلات المجتمع الحقيقية، إلا في حدود ما تسمح به السلطات والتي تتمثل في موجات الغلاء، وارتفاع تكاليف المعيشة، والتضييق على مجالات التعبير عن الرأي، وغيرها من قضايا المجتمعات العربية.

وتسمح بعض الحكومات بالكاريكاتير كنوع من أنواع "التنفيس"، للتعبير عن الرأي منعا لموجات الغضب والصدام مع الحكومات.

ويلجأ أغلب رسامي الكاريكاتير في العالم العربي إلى الرمزية في رسوماتهم الساخرة وحتى من دون كتابة نص أو كلمات، ويستطيع رسامُ الكاريكاتير التعبيرَ عن أفكاره وموضوعاته بطريقة واضحة، وهو أبرز ما يمثل فن الكاريكاتير الذي يستطيع التعبير عن قضايا غاية في السوداوية والمأساوية من خلال رسومات بسيطة تجلب الضحك والسخرية معا.

ويطمح رسامو الكاريكاتير العرب إلى الوصول إلى حرية التعبير التي يتمتع بها زملاؤهم في الغرب وبرزت رسوماتهم في العالم لرسوم الصحافة الكاريكاتيرية. فقد ظهرت صورة كاريكاتيرية لرئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون، التي نال عنها رسام الكاريكاتير الألماني فرانك هوبمان جائزة.

ويقول هوبمان "إنها حقا مشكلة كبيرة أن تطبع الصحف أعدادا أقل من الرسوم المتحركة والرسوم الكاريكاتيرية وأخرى ساخرة. الأمر ككل يتعلق بالحرية وحرية التعبير، وإن تجاهلت الصحف هذا الأمر، إذن نحن أمام مشكلة كبيرة، كبيرة حقا".

وجاء المعرض بنسخته الجديدة ليكافئ الرسامين عن الأعمال التي تم تنفيذها خلال العام 2019، العام الذي استهدفت فيه الرقابة وبشكل خاص رسامي الكاريكاتير، وتحديدا في ما يسمى بـ"أرض الحرية"، الولايات المتحدة.

وتم اختيار 280 رسما للمشاركة في المسابقة من أصل 1000 تقريبا، وتعالج أبرز القضايا في العالم، من المناخ إلى أزمة الهجرة، إضافة إلى الحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين التي منحت البرازيلي كاو غوميز الجائزة الثانية عن فئة الرسوم الافتتاحية.

ويتحدث هذا الرسم الكرتوني عن صعود الصين، الأمر الذي يزعج الأميركيين بشدة، الذين لطالما امتلكوا إمبراطوريات وامتيازات. وتدفع بعض البلدان، وخاصة في أميركا اللاتينية، طوال الوقت ثمن هذا النزاع. أما الآثار الجانبية فتشعر بها الدول الأقل حظا.

ويتساءل المعرض العالمي لرسوم الصحافة الكاريكاتيرية عن الاعتماد المتزايد على شبكات التواصل الاجتماعي، باعتبارها وسيلة تساهم بنقل أعداد متزايدة من "الأخبار المزيفة".

ووافق المعرض بنسخته الجديدة وللمرة الأولى، على عرض الأعمال التي نشرت على الإنترنت وليس فقط على الورق، مثل الكاريكاتير الفائز بالجائزة الثالثة الذي رسمه البرتغالي بيدرو سيلفا لكريستين لاغارد رئيسة البنك المركزي الأوروبي.

وقال سيلفا، "فيما يتعلق بالصحافة المطبوعة، صحيح أنه وفي كل مرة نجد رسومات أقل. لكن من المهم أن يستخدم محبو الرسم، وصناعة الرسوم الكاريكاتيرية والكرتون هذه المنصات بشكل متزايد، ومن ثم يمكننا الوصول إلى أي مكان".

وتم افتتاح المعرض العالمي لرسوم الصحافة الكاريكاتيرية أمام الجمهور في مركز الثقافة والمؤتمرات في كالداس دا راينها ومن المقرر أن يستمر إلى غاية 15 نوفمبر القادم.

وكان من المقرر إقامة هذا المعرض في مايو الماضي لكن تم تأجيله إلى سبتمبر بسبب فايروس كورونا. ووفقا لتوقعات القائمين على المعرض، ينتظر أن يحظى أيضا باهتمام واسع في الرسومات التي ستعرض في نسخة العام 2021.

ما يمكن أن تحققه الصحافة في أفضل حالاتها

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

أعرف صحافيا يسبقني خبرة وتجربة وعمرا وأعلى مني شهادة جامعية، عندما ينظّر يصنع أفكارا مثيرة للنقاش ومحفزة على العمل، إنه يفكر بشكل سليم، لكنه عندما يكتب لا يختلف عن أيّ كاتب تقليدي، يجترّ المكرر ويعيد السائد وما تمّ قوله مرارا.

هذا الصحافي المنظّر ببراعة يحسد عليها، يعجز عن كتابة توصل أفكاره التنظيرية إلى القراء بطريقة مفيدة وتحثهم على استمرارية القراءة.

فهل التنظير يكتفي بكونه عملية ذهنية حاذقة تنتهي بمجرد التوصل إلى الفكرة، ويعجز مفكرها عن إيصالها إلى نص مكتوب مفيد للقراء لاحقا؟

تبدو لي أن العملية متراجحة ومتبادلة وغير متوازنة بين التفكير والكتابة، بين التحدث التلفزيوني والكتابة. هذا شأن إعلامي قائم اليوم بعد أن تحولت نسبة كبيرة من الصحافيين إلى متحدثين دائمين على شاشات القنوات التلفزيونية.

يمكن أن نجمع معا مجموعة من الصحافيين الجيدين عندما كانوا كتّابا في صحف ورقية، وبمجرد جلوسهم أمام الكاميرات اليوم أصبحوا آلات تكرر كلاما سائدا وعاجزا عن إقناع الجمهور.

هؤلاء، الكتاب، الذين يكررون الكلام في الصحافة المطبوعة والمقدمون التقليديون على الشاشات، يصيبون الصحافة بضرر بالغ وهي تحاول إعادة ضبط مكانتها في العالم في زمن ليس عادلا بحقها، عندما يوسعون الفجوة بينها وبين الجمهور، بسبب رغبة الأنانية في الظهور والنشر، وتراجع قدراتهم في استلهام الأفكار وصناعتها.

بينما حاجتنا –نحن الصحافيين– إلى البحث بشكل دائم وتعلم ما يمكن أن تحققه الصحافة في أفضل حالاتها.

فمن بين أهم النصائح الذهبية التي حصل عليها آلان روسبريدجر رئيس تحرير صحيفة الغارديان السابق، من الصحافي البريطاني الرائد هارولد إيفانز الذي رحل عن عالمنا هذا الأسبوع، عندما سأله عن القاعدة الصحافية الوحيدة الثابتة، قال إيفانز: الأوضاع ليست كما تبدو على السطح احفر أعمق واحفر أعمق واحفر أعمق!

سبق أن استعان الكاتب ديفيد اغناتيوس بجملة كان روبرت كايسر، المحرر في صحيفة واشنطن بوست قد أطلقها من أجل تعريف علاقة الصحيفة بالقراء، بالقول إن "القراء يستحقون لقطة واحدة وواضحة على الحقائق" حتى يتمكنوا من تحديد من هم الرجال الصالحون ومن هم الأشرار. ولكن اغناتيوس يعتذر من نفسه ومن زملائه الصحافيين، وهو هنا لا يرتدي نظارة سوداء عندما يتأمل واقع الصحافة بالقول "حتى في أفضل أيامنا، فإننا لا نفي دائما بهذا الاختبار العسير".

فكرة الأسماء الكبيرة في الصحافة المكتوبة، ستسقط بالتقادم عندما تهمشها أصوات نيّرة تصنع أفكارها بمحتوى متميز، لكن –لسوء حظ الصحافة– المشكلة مستمرة إلى اليوم عندما تحافظ المؤسسات الصحافية على هؤلاء بنوع من الوفاء لتجربتهم بغض النظر عن فائدتها.

وتكمن مشكلة التلفزيونات مع التراجع المريع في صناعة المحتوى الإعلامي المتميز، وهي معضلة تهدد جوهر الصحافة لأنها قائمة ومستمرة باطراد مزعج.

الصحف تقدم خسائر بمحتواها المنشور مثلما تتراجع التلفزيونات عمّا يتوق إليه المشاهد، بخضوعها للسائد وتحويل البرامج الحوارية إلى مجرد مقهى للثرثرة الفارغة وبلغة هابطة.

مع ذلك يعمل الصحافيون الحقيقيون ببسالة، والزمن كفيل بإعادة الكفة إليهم للمحافظة على جوهر الحقيقة وحرية تداول المعلومات بين الناس.

صحيح أن هناك القليل من الصحافيين الجيدين وقد لا يكون عددهم كافياً من أجل استمرار الصحافة بمسؤولية وحساسية عالية، لكن ذلك ما هو متاح لنا اليوم من أجل المحافظة على مدونة القيم.

من المفيد هنا أن أستعين بما كتبته رولا خلف رئيسة تحرير صحيفة فايننشال تايمز البريطانية قبل أيام، من أجل استعادة الأمل بالصحافة المكتوبة، لكن لسوء حظ التلفزيونات ليس لديّ مثال معادل يبعث على الأمل في تلك القنوات العربية.

ومع أن مثال رولا خلف من الصحافة البريطانية، لكنه مقياس متميز للأخذ به والاستفادة منه بالنسبة لصحافة عربية تعيش أكبر أزمة وجودية في تاريخها. فضلا عن أزمة الجوهر التي طبعت بها تحت وطأة الضغط السياسي والمالي والخضوع للحكومات.

تعرض خلف صورة حزينة عن مكاتب التحرير التي تحوّلت في لحظة فارقة من اجتماعات مزدحمة وآراء متقاطعة وأفكار متبادلة بين الزملاء، إلى مجرد عمل رقمي مشتت ومتباعد تحت وطأة جائحة كورونا.

> الكتّاب الذين يكررون الكلام في الصحف المطبوعة والمقدمون التقليديون على الشاشات، يصيبون الصحافة بضرر بالغ وهي تحاول إعادة ضبط مكانتها في العالم في زمن ليس عادلا بحقها، عندما يوسعون الفجوة بينها وبين الجمهور

لكنها وبعد ستة أشهر من التباعد تكون فايننشال تايمز قد اجتازت هذا الاختبار من خلال تقديم المحتوى الصحافي بطريقة متبصرة وتحليل عميق يحفز على التفكير المطلوب للتنقل في هذا العالم سريع التغير.

لا تخفي رئيسة تحرير أشهر الصحف البريطانية سعادتها بعشرات الآلاف من المشتركين الجدد بمحتوى الصحيفة على الإنترنت وبطبعتها الورقية، منذ شهر مارس الماضي مع دخول العالم إلى الحجر المنزلي وانهيار النشاطات.

علينا أن نذكر هنا أن فايننشال تايمز تقدم محتواها على الإنترنت مقابل اشتراك مدفوع، وتمتلك اليوم مليون مشترك بمحتواها الرقمي، في إنجاز يشكل موضع فخر للصحافة ويجيب عن الأسئلة المكررة عن موت الصحافة المطبوعة.

ورغم الأزمة الاقتصادية التي أصابت كل المشاريع والشركات جراء انتشار الوباء، إلا أن خلف تعبر بثقة عن الوضع المالي القوي والمتماسك للصحيفة بفضل القراء الأوفياء "هل نجد معادلا في صحفنا العربية"، وبفضل نجاح نموذج الأعمال الذي اعتمدته الصحيفة على الاشتراك الرقمي مقابل المحتوى المتميز الذي تقدمه، وكيف أثبت قيمته ومرونته في أوقات الأزمات.

هذه الصحيفة وفق تعريف لوسي كيلاوي أحد أهم كاتباتها اليوم ومحرريها السابقين، توظف الناس الأذكياء الذين يعرفون كيفية اكتشاف المواضيع المهمة وكتابتها بشكل رائع، وإعطاء القراء المزيج الصحيح مما هو مألوف ومدهش، الخبرة والمعرفة والممارسة والقدرة على الحكم والمهارة والذكاء كلها أمور تلعب دورا، كذلك تفعل القدرة على الكتابة، والقدرة على التفكير، وذلك ما لم يستطع أن يجمعهما صديقي الصحافي المنظّر في مستهل هذا المقال.